الثمرة المرضيّة فى المسيرة الطهطاوية

أول ترجمة عربية للنصوص الميثولوجية

" مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك "

د. مصطفى لبيب عبد الغنى(*)

عن الثمرة المرضيّة فى مصاعب المسيرة الطهطاوية يقول رائدنا الشيخ رفاعة، عزاءً لمحنة نفيه الإجبارية إلى السودان وصبرًا على الممارسات الاستبدادية لطغاة زمانه ومقاومة فكرية جسورة تليق بالكرام من أمثاله : "مع أن مدة الإقامة بتلك الجهات كانت لمجرد الحرمان من النفع لوطنى فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن سفرى لم يضع هباءً منثورًا؛ فقد اعتنيت فى مُدَّتى هناك بترجمة " وقائع تليماك" وهو بكل مَن حِماك[1]، وهو الذى صار طبعُه فيما بعد فى مدينة بيروت. ولاشك أنه **من أنفع كتب الآداب والحِكَم** حيث أعتنِى بترجمته فى سائر لغات الأمم"[2]. وأمثال الطهطاوى هم الذين يقدِّرون هذا العمل حقَّ قدره، فقد "اشتهرت هذه المقالات بين الملل والأُمم اشتهار نار على عَلَم، وتُرجِمت فى سائر اللغات، وسارت بفصاحتها الرُّكبان فى سائر الجهات، لما اشتملت عليه من المعانى الحسنة، مما هو نصائح للسلاطين والملوك، وبها لسائر الناس تحسين السلوك، تارة بالتصريح والتوضيح، وأخرى بالرمز والتلويح".[3]

أراد الطهطاوى بترجمته كتاب "سياحة تليماك" للقسيس الفرنسى "فينلون" صاحب التآليف

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية وتاريخ العلوم بكلية الآداب جامعة القاهرة.

(1) إشارة إلى قول الشاعر الصوفى المصرى الكبير شرف الدين عمر بن الفارض، الملقَّب بـ "سلطان العاشقين"، وهو يناجى ربه :

كلُ مَن فى حمِاك يهواك لكن أنا وحدى بكل مَنْ فى حِماك

(2) رفاعة رافع الطهطاوى : "مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية"، ص 279–280، الطبعة الثانية، القاهرة 1912.

وكان الطهطاوى قد كتبَ مِن قبل – فى مقدمة ترجمته لهذا العمل النفيس ما نصُّه : " لَمَّا توجَّهت بالقضاء والقدر إلى بلاد السودان وليس مما قضاه الله مَفرّ، قمتُ برهةً خامد الهمَّة جامد القريحة فى هذه المِلمَّة حتى كاد أن يتلفنى سعير الإقليم بحرِّه وسمومه ويبلعنى فيل السودان الكاسر بخرطومه، ومع ذلك فكنت فى الوقت الحاضر مصداق قول الشاعر :

فما أنا للأيام غير محارب أصاحُبها مستبشرا متهللا

فما تسليت هناك إلاَّ بتعريب تليماك وتقريب الرجا بدور الأفلاك وقلتُ لقلبى إنَّ تعريب تليماك بكل مَن فى حماك؛ أو ليس أنه مشتمل على الحكايات النفايس، وفى ممالك أوربا وغيرها عليه مدارُ التعليم فى المكاتب والمدارس، فإنه دَوَّن كل كتاب مشحون بأركان الآداب ومشتمل على ما به كَسْب أخلاق النفوس المَلَكيَّة وتدابير السياسات المُلكيَّة" (مقدمة ترجمة "مواقع الأفلاك"، ص4.

(3) المصدر السابق، (الديباجة) ص 29.

الكثيرة أَنْ يُعرِّف العقل العربى الحديث بأول نص ميثولوجى من الآداب الأوربية[*]، وأَنْ يضع بذلك اللَّبنة الأولى فى بناء صَرْح أدبى مُستحدث يراه لازما كل اللزوم. وكان دافعه إلى إيثار هذا العمل بالترجمة "أَنَّ مؤلِفَه مَلِكُ آدابٍ وذو مَلَكة سَيَّالة تفيض بالعَجب العُجاب، فما كل مَن تصدَّى وتصدَّر أَلَّف وعُدَّ مِن الكُتَّاب".[4]

وبالفِعْل كان الطهطاوى على بيِّنةٍ من خطر مهمته المعرفيَّة هذه، فنراه يقول : "عساه أن ينفع فى سائر البلاد الشرقية التلامذة، وأَن يكون كتابا جَيِّدا من كُتب العربية يعتمد عليه فى التعليم الأساتذة لاسيما فى الديار المصريّة التى تقدَّمت كل التقدَّم فى التعليم والتعلُّم، فحمدتُ الله حيث لم يُضع زمنى فى تلك الجهة.. هباءً منثورا بل يُعَدُّ سَعْيى فى إبراز هذا الكتاب، كغيره من المساعى، مشكورًا".[5] ولقد كان هدفه، بالطبع، من وراء تعريبه لهذا "الأدب الخرافى" هو توطين هذا النوع المستحدث فى بيئات الأدب العربى الحديث.

جاء العنوان، الذى اختاره الطهطاوى لهذا العمل فى صياغة عربية بليغة، "مواقع الأفلاك فى وقائع تلمياك" إشارة ذكيَّة إلى أفق النصّ الكونى الذى لا ينحصر بزمان معيّن من الأزمنة ولا بمكان محدَّد من الأمكنة، والذى وجده مناسبة حقيقية لاستشراف تطلعاته السياسية إلى مجتمع مثالى ولكَسْر طوق الاغتراب المفروض من حوله.

الميثولوچيا فى أدبنا الحديث :

يحكى لنا الطهطاوى فى كتابه البديع "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" كيف انعقدت الصلة بينه وبين "الميثولوچيا"، وذلك فيما جاء تحت عنوان : "فى ذكر ما قرأته من الكتب فى

---

[*] جدير بالتنويه هنا أن ترجمة الطهطاوى هذه سبقت كل الأعمال الميثولوجية التى تُرجمت إلى العربية مِن بعد، مثل رائعتى "هوميروس" : "الإلياذة" و"الأوديسيا" ومثل "خرافات إيسوب" و"أنساب الآلهة" لهزيود، إلى غير ذلك.

(4) المصدر السابق ، ص 5.

و "فرانسوا دى سالينياك دى لامونت فينلون Françios de Salignac de La monthe Fènelon (1615-1715) هو مُربى "دوق بورجونى" Le Duc de Bourgogne حفيد لويس الرابع عشر، من أشهر أعماله : "مغامرات تليماكLes Aventures de Télémaque و"خرافات"Des Fables و"حوارات الموتى"Dialogues des Morts و"حكَم القديسين" Maxisms des Saints و "مغامرات تليماك" إبداعٌ أدبى يستلهم فى الأساس "أوديسيا" هوميروس، وقد أصدره المؤلف سنة 1699 وفيه نقد لنظام حكم لويس الرابع عشر.

ظهرت الطبعة الأولى لترجمة الطهطاوى عن اللغة الفرنساوية فى بيروت سنة 1867 بالمطبعة السورية وأعادت تصويرها دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، سنة 2002، بمقدمة مضيئة كتبها "صلاح فضل" وهى الطبعة التى رجعنا إليها. وكانت قد صدرت طبعة ثانية للترجمة بالمطبعة اللبنانية ببيروت سنة 1885.

(5) المصدر السابق، ص 5.

مدينة باريس" من قوله : "ابتدأنا فى بيت الأفندية حين كنا معا بكتاب" سِيَر قدماء فلاسفة اليونان" فقرأناه وتممَّناه، ثم ابتدأنا بعده فى كتاب تاريخ عام مختصر مشتمل على سِيَر قدماء المصريين والعراقيين وأهل الشام واليونان وقدماء العجم والرومانيين والهنود"، وفى آخره نبذة مختصرة فى **علم الميثولوچيا** يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم".[6]

وسرعان ما تأكدت لدى الطهطاوى المكانة الراسخة لهذا النوع الأدبى ومساره المتَّصِل فى الآداب الأوربية الحديثة، وذلك على نحو ما يُظهرنا قولُه : "لما جاء الإفرنج يحذون فى آدابهم حَذْوَ اليونان، اتخذوا الخرافات اليونانية قُدوةً فى ذلك وأُسوةً، وأَلَّفوا فيها تآليف تُسَمَّى الميثولوچيا، و"وقائع تليماك" مشحونةٌ بهذه الأشياء، وما فيها من الآداب مبنى على الآداب اليونانية".[7]

ومما هو جدير بالتقدير وعى الطهطاوى العميق بالدلالة الاصطلاحية المحدَّدة للميثولوچيا، وتفرقته بينها وبين الأساطير والملاحم والتاريخ الأسطورى أو الملحمى، وهو ما قد يغيب عن بعض تراجمة اليوم ! ترجم الطهطاوى لفظ Mythe **بالخرافة** وترجم لفظ Methodologie بـ "علم الميثولوچيا" و بـ "جاهلية اليونان وخرافاتهم" فمزج بين التعريب والترجمة مضيفا إلى ذلك دلالة اصطلاحية بأنها "هى العقائد اليونانية التى هى دقائق رموزها ورقائق كنوزها وهى لا تُعلم عندنا من القِصَّة الواحدة ولا الفَذّ... فهى محض أقاويل حكوها وتُرَّهات حاكوها وخراعَات اخترعوها وخزعبلات ابتدعوها"[8].

وهو يدرك تماما أن غاية هذه الخرافات "مدخليتها فى فهم ما يتوقَّف عليه الأدبيات... وهى من موضوع علم الخرافات لا من موضوع علم التاريخ".[9]

إنَّ بِنْيَة "الميثولوچيا" – بماهى إطارٌ "خرافى" – شيئ مغاير لما قد يتوهَّمه البعض من أنَّ لحمة نسيجها وسداه هى خفايا الرموز وغرائب الأساليب؛ فالطهطاوى صريح فى اعتبار الرمز "لا يليق بالعلم المعنوى ولا بالكلام اللغوى، وإنما يختص غالبا بأحد شيئين : إما بمذهب شنيع يخفيه مُعتَقِدُه ويجعل الرمز به سببا لتطلُّع النفوس إليه واحتمال التأويل فيه سببا لدفع التُّهمة عنه... وإما بما يَدَّعى أربابه أنه علم معوز وأن إدراكه بعيد معجز ... رمزًا بأوصافه ليوهموا الشُّحَ به والأسف

---

(6) رفاعة رافع الطهطاوى : "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" ص 33، بدراسة وتعليق محمود فهمى حجازى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1974.

(7) "مواقع الأفلاك"، ص 27.

(8) "بداية القدماء وهداية الحكماء"، ص 7، ط. بولاق، سنة 1245هـ.

(9) المصدر السابق، ص 64.

عليه خديعة للعقول الواهية والآراء الفاسدة... فالمتشبثون بمثل هذه الأمور لا يُنتفع بعلمهم".[10]

كان من الطبيعى إذن أن يحرص الطهطاوى على الإبانة والإيضاح، وهو يُعبِّر عن ذلك صراحة بقوله عن ترجمته هذه : "وأديت التعريب بأسهل تقريب وأجزل تعبير، وتحاشيت مما يورث المعانى أدنى تغيّير، ويؤثر فى فهم المقصود أقلَّ تأثير؛ اللهم إلاّ أن يكون ثَمَّ محلاً مُخِلاً بالعادة فأتمحَّل لذكر مآل المعنى ومضمونه بعبارات تفيد لازم المعنى أكمل إفادة".[11] ففصاحة المترجم، عنده، مقترنة بأن تكون ألفاظه مفهومة "لأنها إنْ لم تكن كذلك فلا تكون فصيحة، وأن تكون مركباتُه مما تفهمه الخاصة والعامة".[12]

منهج الطهطاوى فى ترجمة الميثولوچيا :

لعلَّ فى الإشارة الهامة التى أوردها المترجم عبدالله أفندى أبو السعود – أحد تلامذة مدرسة الألسن – عن "الخرافات اليونانية"، وأُلحقت بكتاب "بداية القدماء وهداية الحكماء" الذى ترجمه "مصطفى الزرابى" المترجم بالألسن، بتوجيه وإشراف شيخه الجليل رفاعة الطهطاوى – تبريرًا لكثير من الحِيل التى لجأ إليها الطهطاوى لتطويع النص الميثولوجى لذوق وأساليب العربية؛ إذ يَرِد ما نصُّه : "اعلم أنه جرت عادة اليونانيين فى تلك الخرافات بإفراط العبارة فيمن زاد بشئ عن أبناء جنسه من البشر **ولا يتحاشون عن إطلاق لفظ الإله على كل من اشتهر بوصف من الأوصاف،** وربما كان لهم فى ذلك إشارات : كما فى نظمهم للزمن الذى يعنون عنه بـ زحل فى هذا السلك من حيث تسلُّطِه على الأشياء ودوامه وفتكه بأهله. فهذا هو المقصود والباطن من ذلك **وإنْ كان الظاهر كفرا صِراحا.** ولما كانت الآداب اليونانية مبنيَّة على مثل هذه الأشياء وحذت حذوها فى ذلك الافرنج فى آدابهم فاتخذوها قدوةً فى ذلك وأُسوة كان ذلك سبباً باعثاً على تعريب هذه الخرافات".[13]

يكشف الطهطاوى عن بعضٍ مِن تردِّده الذى راوده بين منهج الترجمة بتصرف يوائم مزاج العربية وبين الترجمة الحرفية تكاد تُطابق أصلها، فيقول : "قد كان خطر لى أنْ أُفرغه فى قالب يوافق مزاج العربية وأصيغه صياغة أخرى أدبية وأضم إليه المناسبات الشعرية وأضمنه الأمثال والحكم النثرية والنظمية؛ يعنى أنسجه على منوال جديد وأسلوب به ينقص عن أصله ويزيد حتى لا يكون إلا مجرد أنموذج لأصله الأصيل وعين أن يُقبل عليه من الأهالى كل قبيل، إلاَّ أنى رأيتُ أنَّ

---

(10) "مناهج الألباب"، ص 58 – 59.

(11) "مواقع الأفلاك "، ص 5.

(12) رفاعة رافع الطهطاوى : "المرشد الأمين للبنات والبنين" ، ص 76، مطبعة المدارس الملكية، القاهرة، 1875.

(13) "بداية القدماء"، ص 119.

الأوفق الآن بالنسبة للوقت والزمان حفظ الأصل وطرح الشك وإبقاء ما كان على ما كان، وإنما لم أجد بُدًّا من مسايرة اللغة العربية وقواعدها **وعقائدها المرعيَّة** مع المحافظة على الأصل المترجَم منه حسب الإمكان، **فهذا ناموسُ الأصلِ والفرعِ** محفوظٌ وقانونُ الترجمة الحقيقية ملحوظٌ".[14] ولعل فى هذه الخاطرة الذكية – من رائدنا – تنبيها رشيدا إلى أن النص المترجم لا يمكن أن يكون بديلا عن أصله.

على أنه مما يتصل بعمل الطهطاوى اتصالا وثيقا فى تيسير النصوص المترجمة ما كان يقوم به أحياناً من مقدمات كاشفة لغوامض مضمونها حلاًّ للعويص من عُقَدها، وما كان يحرص عليه كذلك، ويُوجِّه إليه تلامذته، فى مقدمات النصوص أو فى خواتيمها، من إعداد معاجم اصطلاحية ومعاجم للأعلام والأماكن والحوادث الواردة كانت آنذاك تلزم العربية كل اللزوم.

***

لتطويع النص المنقول إلى العربية، وبخاصة النص "الميثولوجى" أهاب الطهطاوى بطائفة من الحيل اللغوية المشروعة مقتديا سُنَّة أسلافه من المترجمين العظام فى الحضارة الإسلامية، ومستشرفا للعربية مستقبلا مأمولاً تكون معه مهيئة تماما لكل صور التعبير المتجدّد عن المعارف والخواطر لا تضيُّعها عُجمة ولا تعتريها أى أعراض للوهن تكون مقدمة أو إيذانا لتسليم أصحابها بالعجز وهى منه بُراء؛ فنجده يلجأ إلى النحت أحيانا وإلى الاشتقاق فى أحيان أخرى كما يحرص على التعريب لما لا يجد له فى اللسان العربى مقابلا[15]، وذلك بعد أن يستفرغ جهده فى بعث الاصطلاحات المعرَّبة القديمة الملائمة منها على وجه الخصوص. وكان الحصاد فى النهاية هو احتضان **الكثير من الدخيل وتوطين الكثير من الألفاظ** الأعجمية فى العربية الحديثة.

ومن الظواهر اللغوية عنده عدم التحرّج من استخدام اللفظ العامى أحياناً، بعد ضَبْطِه، وهو أمر كانت تمليه الضرورة والرغبة فى تقريب الأفكار إلى الأذهان، كما يلاحظ حرصه على استدعاء طائفة لا يُستهان بها من الألفاظ العربية المهجورة والغريبة التى يندر استدعاؤنا لها كما

---

(14) "مواقع الأفلاك" المقدمة ، ص 23.

(15) يطالعنا قول الطهطاوى فى مقدمة كتابه "قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر" – وهو من بواكير ترجماته : "لما كانت هذه الألفاظ فى الأغلب أعجمية فلم تُرتَّب إلى الآن فى كتب العربية رتَّبناها بأسهل ما يمكن التلفظ به على وجه التقريب، حتى إنه يمكن أن تصير على مرّ الأيام دخيلة فى لغتنا كغيرها من الألفاظ المعرَّبة عن الفارسية واليونانية، ولو صنع المترجمون نظير ذلك فى كل كتاب لانتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتَّبة على حروف الهجاء ونظمها فى قاموس مشتمل على سائر غريب الألفاظ المستحدثة التى ليس لها مرادف أو مقابل فى لغة العرب أو الترك (واللغة التركية كانت لا تزال على أيامه هى اللغة الرسمية) فإن هذا مما يفيد التسهيل على الطلاب وبه تحصل الإعانة على فهم كل علم أو كتاب" (ط. بولاق، 1833).

يكشف عنه استقراء التطور اللغوى للعربية، ولعلَّ مقصده فى ذلك إكساب العربية على أيامه عافيةً جديدةً وإيقاظ الوعى بضرورة التواصل اللغوى والارتباط الحميم بالجذور. وفى ترجمته لهذا النص الميثولوجى المتميِّز عن الفرنسية يظهر لنا حرص الطهطاوى على الإهابة بأساليب القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وبحِكَم العرب وأمثالهم السائرة. وهو إذ يستهدف فى غاية الأمر ترويجا لهذا النوع الأدبى الحادث والمثير ابتداءً للريبة والتوجس ، فإنه يرى فى الارتقاء ببلاغة النص المترجم وتطريزه بالمحسنات البديعية – المستحسنة فى زمانه – عَوْناً له وأى عونٍ، كما نشهد أيضا وَلَعَه بمعارضة أساليب أصحاب "المقامات".

***

من ظواهر تنمية اللغة عند الطهطاوى استخدامه "للمصدر الصناعى"، وذلك من قبيل استخدامه مثلا لكلمات : الشبوبية (ص 110، 231)، إنفاذيّة (ص 165)، التبرُّكيَّة (ص170)، الطماعية (ص 217)، المرجوحيَّة (ص174)، موِاطيَّة (ص 667)، المرخصيَّة (ص 697)، الصدَّية (ص 700).

واستخدامه الفعل "المطاوع" كثيرا مثل : ينهضم، ينفسد، ينعقد، يتصنعّ، ينحجب، ينحبس، كما يستخدم مصدره أيضا فيقول : انفساخ، انفحام، انفجام.

واستخدامه اسم الفاعل واسم المفعول للدلالة على الصفة مثل قوله : مرجوحية وراحجية (ص174).

ويشتق من الفِعْل شَعَب الاسم مَشْعَب بمعنى الطريق أو المسلك (ص 11) ويشتق من ظرف المكان "فوق" اسم "الفوَقَان" بمعنى الغلبة والانتصار، فى مثل قوله : " مَن هو للفوقان حايز وفى حلبة الميدان على الأقران متمايز" (ص 439). ويشتق من الفعل جَنَى الاسم : جَنِيَّة على وزن اسم المَّرة. ويشتق من الفعل حَصَّص المصدرَ مُحاصصة، على وزن مفاعلة (ص 666).

وكان من الطبيعى أن يأتى النص المترجم حافلا بمئات المعربات جُلُّها من أسماء الأعلام والبلدان والأماكن ومنها ألفاظ اصطلاحية. ويميل الطهطاوى – فى معربَّاته – إلى **قلب التاء طاءً** مثل : Hector هقطور بدلا من هكتور، وMentor منطور بدلا من منتور، وPlutonبولوطون بدلا من بلوتون، وThésée طيسوس بدلا من تيسيس، وTélamon طِلَمون بدلا من تلمون، و Philoctéteفيلوقتاتس بدلا من فيلوكتاتس، وIthaque طياكى بدلا من تياكى، و Thriptoléme طربطليموس بدلا من إتربتليموس Hippolyte، وهيبولوطس بدلا من هيبوليتس، و Pisitrateبيزسطراطس بدلا من بيزسيستراتس، وErichthon ايريخطون بدلا من اريختون، و

Traumaphileطرومافيل بدلا من ترومافيل، و Nestor نسطور بدلا من نستور، و Adraste أدرسطه بدلا ادرسته.

- كما يميل إلى قلب **الكاف قافاً** مثل : Hector هقطور بدلا من هكتور، وphiloctére فيلوقطاطس بدلا من فيلوكتاتس ، وCupidon قوبيدون بدلا من كوبيد، وHercule هرقولس بدلا من هركولس، وArcésius أرقسيسوس بدلا من أركسيوس، و Alcinous إلقينيوس بدلا من الكينيوس، و Iphiclés إفيقيلاس بدلا من إفيكلاس، Care قاريا بدلا من كاريا، Cleómènesإقليومنوس بدلا من اكليومنوس.

- كما يميل إلى **قلب التاء دالاً** مثل : Crete كريد بدلا من كريت، وبَوْدَقة بدلا من بَوْتَقَة .

وأحيانا يقلب الكاف جيما مثل : Crétois الجريدلية بدلا من الكريدلية.

وأحيانا يقلب **السين صاداً** مثل : Nosophuge نوصوفوج بدلا من نوسوفوج، وSisyphe صوصوفه بدلا من سيزيف، و Eusculape إصقلابوس بدلا من إسكيولابس.

وأحيانا يقلب **الجيم غينا** مثل : Gargan غرغان بدلا من جَرْجان ، Agamemnonأغاممنون بدلا من أجاممنون.

وأحيانا **يقلب السين شيناً** مثلSamos شاموس بدلا من ساموس.

ويقلب حرف الـ **X فى الفرنسية إلى زاى** مثل Xanthe فيكتبه زانطه.

كما يقلب حرف الـ U فى الفرنسية عيناً مثل :Ulysse عولوس بدلا من أُوليس .

وفى بعض الأحيان كان يعاود تعريب اللفظ المعرّب من قبل مثل : Sicile صقلية فيعرّبه سيسليا ويستخدم كليهما. وأحيانا يستدعى ما سبق تعريبه فيقبله دون تغيير مثل : Nabopharazon بختنصر. وأحيانا كان يجمع بين الترجمة والتعريب للفظ الواحد مثل: Chronolgie "علم الخورنولوچيا"، و"علم الأزمان"، و Charte الشارطة ، أو المشارطة والمعاهدة، وDiane ويسمونه ديانه رب الغابات، و Minerve منرفا إلهة الحكمة والفنون.

وأحيانا كان يضيف الكلمة المعرَّبة إلى الكلمة العربية ذاتها فيقول مثلا : حرسك الجارديان" (ص 354).

- ومن لطائف معرَّبات الطهطاوى تعريبه الفعل الفرنسى biser بلفظ باسَ (ص 203) بمعنى قبَّلَ، بنفس استخدامه فى العاميَّة المصرية.

وأحياناً كان يضيف همزة الوصل إلى بعض الكلمات التى تبدأ فى الفرنسية بحرف ساكن

مثل : إقليومنوس Cléomènes، إطرابطليموسTriptoléme.

وأحيانا كان يُجرى تغييراً طفيفاً فى حروف بعض الكلمات المعرّبة مثل :

كالبه Calipso، و Carie قاريا، و Les Lyediens اللودية، و Les Danniens الدونية، و Les Troyens الطراوديون، و Les sybarites السبيريطه (أهل مدينة سيباريس).

ولم تكن معرَّباته – فى هذا النص وفى بقية النصوص – قاصرة فقط على تعريب الألفاظ الفرنسية وإنما اتسعت كذلك لكثرة من الألفاظ ذات الأصول الإيطالية والتركية والفارسية، الأمر الذى يجعل من الأعمال المترجمة للطهطاوى وتلاميذه مناسبة طيبة لرصد ما طرأ على معجم العربية من الدخيل وما اكتسبه من غنىً وثراء.

وبالإضافة إلى الكثرة الهائلة من الكلمات المعربَّة بذل الطهطاوى جهدًا حميدًا فى نقل الكثير من الكلمات الأعجمية فترجمMinérve بالحكمة و Jupiter بالمشترى و Mercure بـ عطارد، و Charon بـ خازن النار. كما ترجم Les ombres du styx بـ أرواح البرزخ و Les beaux lieux بالفراديس و Le royaume sombre de Pluton بـ حكومة منكرونكير (ص 530)، والLa Fatale machine (حصان طروادة) بـ الدولاب المنحوس (ص 509).

***

وقد وصلت بلاغة الترجمة، فى نصنا هذا، شأوا بعيدا، وازدانت بشواهد من حكم وأمثال العرب السائرة. (16)

وتظهر فى ترجمة الطهطاوى آثار ثقافته الإسلامية الموسوعية ظهورا جلياً؛ فنجد كثيراً من صياغاته محمَّلة بدلالات مصطلحات علم الحديث وعلم أصول الدين وعلم الفقه والتصوف وعلم العروض وعلم المنطق، فضلا عن تأثره العميق بأساليب القرآن الكريم. ولعلّه وَظف ذلك كله لكى يُفسح لهذا النص الميثولوجى مكانة لائقة فى بيئة الثقافة الإسلامية الحديثة. وهو إذْ يضفى على كثير من صياغاته طابعا توحيديا يبتعد فيه أحيانا عن الروح الأصيلة للنص والمغايرة بطبيعتها لمفهوم الوحدانية والتنزيه فإن ذلك لا يأتى على حساب المغزى العميق لدلالات النص الجوهرية التى قصدها المؤلف والتى كان الطهطاوى موفَّقا فى نقلها إلى لغتنا العربية كل التوفيق.

---

(16) من قبيل : "ليس مَنْ طبعه اللطف كمن تطبَّع" (ص 115)، "مُكْره أخاك لا بطل" (ص203)، "تعق بالفِراق غراب البين" (ص 527، 542، 583)، "إلى حيث ألقت رحلها أمُ قشعم" ص 542)، "ما لا يُدرَك كله فجله لا يُهمل" (ص640)، و"لات حين مناص" (ص 643)، و "لا يُسمن ولا يُغنى من جوع" (659)، و"الحسود لا يسود" (ص 677)، "مَن شبَّ على شئ شاب عليه" (ص 705)... الخ.

* * *

تكشف عن تشبُّعِه بثقافة **علم الحديث** صياغات فى الترجمة من قبيل قوله : "رأيتَ يا منطور كيف يصل فصيح كلام الإنسان إلى ما لا يصل إليه حدُّ السيف والسنان، وأن آلات التطعين والتجريح تعجز عنه مقابلة **التعديل والتجريح** ولا تعادلها فى ميزان الترجيح" (ص 315).

وذلك ترجمة للنص الفرنسى :

"Vous voyez, Ô Mentor, ce que peut la parole d'un homme de bien. Quand la sagesse et la vertue parlent, elle calment toutes les passions".[17]

وقوله :

"لكن قليل من الملوك مَن يُحسن إحراز هذه الفضيلة ويحوم حول الاتصاف بهذا الوصف ويعرف تجريحه وتعديله، بل أكثرهم ينهض للحصول على فخر باطل وخيال زائل ويطرح الفخار الحقيقى ظهريا" (ص 444) .

وذلك ترجمة للنص الفرنسى :

Mais qu'il y a peu de rois qui sachent la chercher, et qui ne s'en éloignent point ! Ils courent après une ombre trompeuse, et laissent derrière eux la vrai honneur."[18]

– ومن أمثلة الصياغات التى تكشف عن عمق تأثره بنظريات **علم أصول الدين** الإسلامى (علم الكلام) قوله :

"وقد أرادت **الحكمة الإلهية المنوطة بإصلاح البريَّة** حيث أبرزتهم بيد القدرة فى حَيِّز الوجود أن تكون ثَمَّ رابطة قديمة تربطهم بالاتفاق والاتحاد". (ص 319)

وجاء ذلك ترجمة طابعها الإسلامى واضح كل الوضوح للنص الفرنسى :

"C'est ainsi **les justes dieu,** amateurs des hommes, qu'ils ont formés, veulent être **le bien éternel** de leur parfaite concordé".[19]

وقوله :

"ومَوْلَى الموالى الرفيع **المتعالى فى عُلُوِّ عُلاه** يتجلَّى على عباده بصفة الجلال والجمال

---

(17) Fénelon, "Les Aventures de Télémaque, Paris, Didier, 1861, p.176.

(18) Ibid, p.258

(19) Ibid, p.179.

والإعزاز والإذلال **لا إله سواه لا يخفى عليه فى الكون خافية وعلمه يحيط بالكليات والجزئيات. لا يكون شيئ إلا ما سبق به قدره وقضاه،** ولا تجرى المقادير إلا بما جرى فى **أُمِّ الكتاب مما حكم به وقضاه.** فكل مخلوق تحت أُرجوحة القدر وبحبوبة القضا الذى ما عنه مفر ينتظر تنجيز ما تعلَّقت به **القُدرة الإلهية بما خصصته الإرادة الأزلية**". (ص505)

جاء ترجمة أكسبها الطهطاوى طابعا إسلاميا بليغا ممَّيزا عكس ثقافته الكلامية وذلك للنص الفرنسى :

"**Jupiter,** au milieu de toutes les divinités célestes, regardait du haut de l'olympe ce carnage des alliés. En même temps il consultait les immuable destinées, et voyait tous les chefs dont la tarme devait ce jour-la' être tranchée par le ciseau de la parquet . **Chacun des dieux** était attentive pour découvrir sur le visage de Jupiter quelle serait sa volonte.[20]

وبما يكشف عن قبوله لنظرية "الكَسْب" الأشعرية يقول :

"لست أنت الفاعل الحقيقى لهذا الفعل العظيم، الفاعل المختار هو المولى الكريم" ص 689)

ترجمة للنص الفرنسى :

"Ce qui vous reste a faire, c'est de louer les dieux"[21]

وقوله عن العْدل الإلهى :

"وأما أكثر الملوك والجمّ الغفير الذين حكموا بالجَوْر رعاياهم وأغضبوا السواد الأعظم والجماهير فهم أهل خباثةٍ وأشرار، ولو أمهلهم **المولى** فقد أمهلهم إلى يوم تشخص فيه الأبضار جزاء لما اقترفوه من الضرر والضِرار؛ فلو تركوا سدى لجاز ولكن قضى المولى بعذابهم، **ولا يظلمُ رَبُّك أحدا**". (ص 576).

وذلك ترجمة للنص الفرنسى :

"Et la plupart sont si méchants que **les dieux** ne seraient pas justes si, après avoir roussert qu'ils aient abusé de leur puissance pedante la vie, ils ne les punissaient après leur mort."[22]

-ومن الصياغات التى جاءت ذات طابع **صوفى** فى ترجمتها قوله مثلا: "فيا أيها الأب

---

(20) Ibid, p.271.

(21) Ibid, p. 354.

(22) Ibid, p.306.

الروحانى وربّ الحكمة، ويا خليفة الخضر وإلياس فى الوصايا النافعة للأمة بَلَغت المرام.. الذى هو آخر تسليتى ونهاية النعمة" (ص 204)

ترجمة للنص الفرنسى :

"O mon père, ou laisse-moi cette derniére consolation qui est si juste"(23)

وقوله :

" ولا يكاد يوصف فهم فى جنةٍ عالية قطوفها دانية لا تسمع فيها لاغية" (ص 510)

ترجمة للمقطع الفرنسى :

"Sur un rivage inconnu"(24)

وقوله :

"فترك تليماك هذا المَسْعى قائلا إنّ إلىَ ربِّك الرُّجعى فهو الأول والآخر والذى أخرج المرعى.... **ثم إن تليماك تنبَّه واستيقظ من سِنَته وأفاق مِن سُكْره وعاد إلى صحوته وفارقته الهواتف والورادات الخيالية وانجلت عنه التجليَّات الجلالية والجمالية فوجد ما رآه فى لوح حافظته مكتوبا فى كتاب مسطور ورق منشور، وتحقَّق من أحوال دار الفناء ومن البيت المعمور فتذكَّر أن هذه كانت من حركة الهواتف أو من خيال الطيف الطائف حيث أرته كما يشتهيه أحلاما وأورودته من الموارد العذبة على نهر الكوثر فأنِس منه أحلاما وشاهد حوله عقولا وأحلامًا... وقال فى نفسه فيما يراه المؤمن إنْ هو إلا وحىٌ يُوحَى" (ص 601)**

وهى ترجمة موشَّاة ومُوسَّعة للنص الفرنسى الموجز :

"Télémaque, les larmes aux yeux, le quitta sa pouvoir l'embrasser, et sortant des ces sombre lieux, Il retourna en diligence vers le camps des alliés, après avoir rejoint sur le chemin."(25)

وقوله :

"هو مِن صُنع العقل الرحمانى ومصحوب بالرفق واللين والصَّفا الذى هو فيض إلهى صمدانى" . (ص702)

---

(23) Ibid, p.112.

(24) Ibid, p.273.

(25) Ibid, p.317.

ترجمة للنص الفرنسى :

"Ici tout est l'ouvrage d'une sagesse céleste; tout est doux, tout et pur, tout est aimable, tout marque une autorité qui est audessus de l'homme".(26)

وقوله :

"هو رجل عاقل" موصوف بالزهد والقناعة يخاف مقام ربه وينهى النفس عن الهوى" (ص778).

ترجمة للنص الفرنسى :

"C'est un home sage et modéré, qui craint les dieux".(27)

وقوله :

"أَحَبَّ أن يسلك مسلك **الرهبانية** ويعتزل معاشرة الناس المفضية إلى التشبث بالخسايس والأمور الدنيَّة" (ص678-679)

ترجمة للنص الفرنسى :

"Enfin a' se passer des hommes".(28)

ومن الصياغات المطبوعة بطابع **فقهى** قوله :

"ويكون لكم علينا الفضل والمنَّة بشرح صدورنا برؤية أَعزِّ البلاد وأكرم الناس علينا لنقضى الفرض والسُّنَة". (ص 212)

ترجمة للنص الفرنسى :

"et nous vous devrons a' jamais la joie de revoir ce que nous avons de plus cher au monde".(29)

ويقول :

"ولكن يعتقدون أنه فن خَطر تنشأ عنه المضرَّات وتنتج عنه الخسارات الوسيعة ولا يرضونه لأنفسهم سدًّا للذريعة". (ص 248)

---

(26) Ibid, p.358

(27) Ibid, p.590

(28) Ibid, p.349.

(29) Ibid, p.118.

ترجمة للنص الفرنسى :

"mais ils croient que c'est un art pernicieux".(30)

- ومن الصياغات ذات الطابع **المنطقى**، قوله :

"المطامع القليلة الجدوى التى تتستَّر بقناع الدلايل السفسطائية والدسائس الخفيَّة الخطابية" (ص 519)

وهى ترجمة للنص الفرنسى :

"l'injuste avidité qui se couvre de beaux prétexts".(31)

وقوله :

"وَنسيتَ أصلَكَ وأنكرتَ جنسَك وجحدتَ فَصْلَك". (ص 547)

ترجمة لما نصّه :

"ne fallait – il pas te souvenir que tu étais de la race des autres hommes".(32)

وقوله :

"الإنسان لا يحكم فى الأشياء حكما صحيحا إلا إذا تصوَّره قبل **التصديق** ورتَّبه كله فى مراتب ومقدِّمات وشكَّله فى أشكال منتجةً نتائج صحيحة التنسيبات. فإذا اختلت قاعدة **التصورات** فى الحكومة **والتصديقات** صارت الحكومة أشبه شيئ بالموسيقا المتفرِّقةِ الاصوات". (706-707).

ترجمة للنص الفرنسى :

"On juge sainement des affaires, que quand on les compares ensemble, et qu'on les places toutes dans un certain ordre, afin qu'elles aient de la suite de la proportion. Manquer a'suivre cette régle dans le gouvernement, c'est ressembler a' un musicien qui se contenerait de tourver des son harmonieux".(33)

وقوله :

---

(30) Ibid, p.158.

(31) Ibid, p.277.

(32) Ibid, p.292.

(33) Ibid, p. 360.

إن جميع البشر إنما هم أبناء رجل واحد أَوْجَدهم الموجِد الماجد فانتشروا فى الأرض فى جميع جهاتها و**لو اختلفت القضايا على اختلاف موجِّهاتها**". (ص 319)

ترجمة للنص الفرنسى :

"Tout le genre humain n'est qu'une famille dispersée sur la face de toute la terre".(34)

ومن أمثلة الصياغات التى تعكس تأثر الطهطاوى فى ترجمته بثقافته **العَروضية**، قوله:

"إن الحرب يلزم فى بعض الأحيان ويقتضيها الوقت ويوجبها الأوان. ومن سوء حظ النوع البشرى أنهم قد لا يمكنهم تجنبها عند مقتضيت الحال والزمان، وهذا مما يُعاب على ابن آدم لنقصه وميله إلى إجراء سفينته فى بحر الفخر الذميم وارتكابه فى بحر الحرب **زحاف أجزائه وعللها** من خبثه ووَقْصِه" (ص319–320)

ترجمة للنص الفرنسى :

"La guerre est quelquefois nécessaire, il est vrai; mais c'est la honte du genre humain qu'elle suit invétable en certaines occaisios.(35)

***

الشواهد القرآنية :

وإذْ يضطلع عالمنا الأزهرى العاشق للعربية –والذى نهال من ينابيع الثقافة الأوربية الثرَّة– بريادة نقل النص الميثولوجى إلى العربية يجد نفسه مدفوعا إلى استحضار الصياغات القرآنية – وهى المثل الأعلى للبلاغة – لتعينه على توصيل أقصى ما يُفصح عنه المنقول وزيادة. ذلك نهج رآه الطهطاوى قويما لتحقيق أُلَفة العربى مع النص المترجم، ورآه تجاوزا لروحه المغايرة للروح الإسلامية وانعتاقا من شرك عباراته فى ظاهرها توخيًّا للظفر بمغزاه العميق.

ومن الشواهد على ذلك قول الطهطاوى، على سبيل المثال :

"فكانت محاورته وجيزة مختصرة. ومنطقه **قول** "**فصل**" **وما هو بالهزل**، حتى تمنَّى جميُع الناس أن يطيل الكلام الذى هو فى مقام البلاغة فى أعلى طبقات الانسجام وجميع ما قاله ارتسم فى ساير الأذهان والأفهام". (ص 313).

---

(34) Ibid, p. 179.

(35) Ibid, p.179

ترجمة للنص :

"ses paroles avaient paru courtes, et on aurait soichaité qu'il eut parlé plus longtemps".(36)

وقوله :

" لا يليق بالناس المُعَدِّين للعيشة الحُرَّة الشريفة العالية الخالية عن الصنعة أن يبتدعوا أشكالا للزينة الفاحشة المتصنعة بل ولا يأذنوا لنسائهم اللآتى فى حقهن الزينة قليلةُ العيب والعار أنْ يتغالين فى الزينة **ويتبرَّجْنَ تَبرُّج الجاهلية**، فهو مخَلٌ بالاعتبار". (ص 357)

وذلك ترجمة للنص :

"Il est indigne que des hommes, destinés a' une vie sérieuse et noble s'amusent a' inventer des parures affectées, ni qu' ils permettent que leurs femmes, a' qui ces amusements seraient moins honteux, tombent jamais dans cet excès".(37)

وقوله :

"وقد أرادت الحكمة الإلهية المنوطة بإصلاح البرَّية حيث أبرزتهم بيد القدرة فى حيِّز الوجود أن تكون ثَمَّ رابطة قديمة تربطهم بالاتفاق والاتحاد وتَنْظِمُهم فى عِقْد من العقود وأن يكونوا **إخوانا على سُرُرٍ متقابلين موحِّدين ومتوحدين**". (ص319)

ترجمة للنص الفرنسى :

"C'est ainsi que les justes dieux, amateurs des hommes, qu'ils ont formés, veulent être le bien éternel de leur parfaite concorde."(38)

وقوله :

"الذى يصفه الشعراء ولا يكاد يُوصَف فُهم **فى جنةٍ عالية قطوفها دانية لا تسمعُ فيه لاغية**". (ص 510)

ترجمة موسَّعة لما جاء بالفرنسية على هذا النحو :

---

(36) Ibid, p.175

(37) Ibid, p.197.

(38) Ibid, p.179.

", sur un rivage inconnu."[39]

وقوله :

"وصار يقول بعضهم لبعض فى حق هذا الشخص العظيم : **ما هذا بشرا إن هذا إلا مَلَك كريم**". (ص 523)

ترجمة للنص :

"Ce n'est pas un homme, disaient-ils, C'est sans doute quelque divinité bienfaisante sous une figure humaine".[40]

وقوله :

"ثم نادى حافِظُ البرزخ : يا أيها البابلى المدَّعى الربوبية الذى لنفسه ظَلَم إنما هذا ابتداء عقابك وأينَ أينَ منكُ المخَّتتم. فجهِّز نفسك لحكم العادل الحكيم **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاَّ من أَتى الله بقلب سليم**". (ص 549)

وذلك ترجمة للنص :

"Ce n'est encore lá, Ô Babylonien, que le commencement de les douleurs; prépare-toi á être jugé par l'inflexible Minos, juge des enfers".[41]

وقوله :

"دار البقاء والسعادة التى يُثاب فيها الملوك، وهى جزاء **الذين آمنوا وعملوا الصالحات**". (ص 522–553)

ترجمة للنص :

"Les champs – Élyées, oú les bons rois sont récompenses".[42]

وقوله :

"**أَوجَس فى نفسِه خَيَفة**". (ص 543)

ترجمة للنص :

---

(39) Ibid, p.273.

(40) Ibid, p.280.

(41) Ibid, p.293.

(42) Ibid, p.295

"sentit son coeur ému."[43]

وقوله :

"فأقبل تليماك على هؤلاء الملوك الذين عملوا العمل الصالح فوجدهم فى قصور عالية زكيَّة الروايح فى **مقعد صِدق عند مليك مقتدر تجرى من تحتهم الأنهار**". (ص 569–570)

ترجمة للنص الفرنسى :

"Télémaque s'avnaça vers ces rois qui étaient dans des bocages odoriférants, sur des gazons toujours renaissants et fleuris".[44]

وقوله :

" فمن وقت دخولها فى حِسِّه وهى تهوج وتموج فى نفسه وتستولى على خاطرِ العقلِ وهَجْسِه وكأنما هى تجول فى صحيح الفؤاد كل الجولان، وكأنها الأمانة التى عرضت **على السموات والأرض فأبين أنْ يحملنها وأشفقنَ منها وحملها الإنسان**، ومع ذلك كان يحسّ لها لذةً لطيفة ممزوجةً بآلام خفيفة !" (ص 582)

ترجمة للنص :

"Il ni pouvait ni le contenir, ni le supporter, ni resister à une si voilente impression : C'était un sentiment vif et délicieux, qui était mêlé d'un tourment capable d'arracher la vie".[45]

وقوله :

"فأسئل **الله تعالى** أن يجعلك من خيار الناس المستحقين لهذه السعادة الفائزين بالحسنى وزيادة، وأنْ يكتبك فى صحائف الملوك العالمين بشرائع العدل وبها عاملين، الراجين لفضل الله وله مؤملين، **وآخر دعواهم أنْ الحمد لله رب العالمين**" (ص 600)

وهى ترجمة اكتست ثوبا إسلاميا واضحا للنص الفرنسى :

"plaise **aux dieux** de te rendre assez bon pour mériter cette vie heureuse, que rien ne peut plus finir ni troubler".[46]

وقوله :

---

(43) Ibid, p.291

(44) Ibid, p.303

(45) Ibid, p. 509

(46) Ibid, p. 317

"فترك تليماك هذا المسعى قائلا : **إنَ إلى ربِّك الرُّجعى، فهو الأول والآخر والذى أخرج المَرْعى**.... وقال فى نفسه فيما يراه المؤمن : إن هو إلاَّ وحىٌ يُوحَى". (ص 601)

ترجمة موسَّعة لما جاء فى الأصل الفرنسى هكذا :

"Télémaque, les larmes aux yeux, le quitta sans pouvoir l'embrasser; et, sortant de ces sombres lieux."(47)

وقوله :

"فأنت العليم البصير **ونِعْم المولى ونِعْم النصير، فاحكم بيننا وبين قومنا بالحق** فأنت أحكم الحاكمين ". (ص 625)

هى ترجمة ذات طابع إسلامى واضح للعبارة الفرنسية التالية :

"voyez et décidez entre lui et nous."(48)

وقوله :

"ما أقسى الدهر الخئون، ليته قَصَّر أيامى وضَيَّق فسيح أحوالى وأعوامى، وليته لم يمهلنى زمنا مليًّا، **ليتنى مَتُ قبل هذا وكنتُ نَسْياً منسيا**". (ص 636)

هى ترجمة فى عبارة إسلامية بليغة مضفَّرة بالتعبير القرآنى للعبارة الفرنسية التالية :

"Hélas! Cruelles destinées, pourquoi n’avez vous pas fini ma vie"(49)

وقول الطهطاوى فى بلاغة ملحوظة :

"فالآن شرع يعتقد أن ثَمَّ ألوهية تستحق أن تُعبد وربوبية لا يليق أن تُنكر وتُجْحَد وعَرف أنه أَغضبَ مولى الموالى غضبا شديدا وتخيَّل أن هاتفا يهتف به حيث أضحى شيطانا مريدًا يقول امضوا به إلى **جهنَّم وبئس المصير** حيث لم يكن له ظهير ولا نصير وفقد حاسة الإسماع والإبصار، إلا أنه أَحَسَّ بقوة إلهية من إله **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**". (ص 643)

ترجمة للنص الفرنسى :

"Alors, il commença a' croire qu'il y a **des dieux**; il s'imaginait les voir irrités, et entendre une voix sourde qui sortait du fond de l'abime pour l'appeler dans le noir tartare: tout lui faisait sentir une main céleste et

(47) Ibid, p. 317

(48) Ibid, p. 327

(49) Ibid, p. 354

invisible"[50]

وقوله :

"وهو دايما فى تَطلُّب ما لم تَمْلكه يَدُه على وَجَل، فكيف لا وقد خُلق الإنسان من عَجَل". (ص 784)

ترجمة للنص التالى :

"il est ingénieux pour se tourmenter sur ce qu'il ne posséde pas encore"[51]

* * *

وبعد، فهذه دلائل صدق على بعض من جهود الطهطاوى الرائدة فى تطويع لغة النص الميثولوجى – مَبْنى ومعنى – تحقيقا لمراميه البعيدة فى اتخاذه مناسبةً لإيقاظ الوعى بقيم الإسلام الرفيعة ولبثِّ تطلعاته السياسية لمجتمع مثالى على الأرض ولطرْح رؤاه التفصيلية لبرامج الإصلاح والتنبيه إلى مظاهر الفساد المهلكة للأفراد والجماعات، بحيث جاءت ترجمته العربية الفَذَّة لنص "فينلون" "مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك" كما قال صاحبها عنها "بكل مَنْ فى حماك"؛ فهى دُرَّةُ الرائد وفاتحة الخير؛ وأما المضمون الباقى لمجمل الأفكار الطهطاوى الحيَّة التى بثَّها فى ثنايا ترجمته لهذا النص المثير – فله حديث آخر. والله الموفق،،

---

(50) Ibid, p. 334

(51) Ibid, p. 593